ويستجيب الشكل لتلك الازدواجية، فتتحرك الشخصية / الفكرة في عالم من الافكار وتعبر عنها بشكل يتناقض مع بساطتها ويتجاوز امكانياتها الذهنية الفعلية، مما يخل بها كشخصية انسانية بسيطة ويهدر إمكانيات نموها على هذا المستوى، إذ تضيع ملامحها الانسانية تحت وطأة ذلك العبء الكبير من الحمولة الفكرية التي ارهقها بها الكاتب. فهل تستطيع شخصية الأعمى، العامل في الفرن أن تحتمل مثل كل هذه الأفكار دون أن تفقد نفسها كشخصية انسانية بسيطة!... «الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء إلا الاحلام الكبيرة».. «المعجزة ليست اكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس» (ص ٤٧٣). ومثلها شخصية الأطرش، العامل في وكالة الغوث «الحقائق الكبيرة، كما يبدو، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات» (٤٧٩)... «ليس اجن منك الا انا، نبحث في كوم الطين عن كنز مسروق، ورأس عبد العاطي يضحك علينا» (ص ٤٨٩).

تعتمد الرواية، في بداياتها، على توازي الصوتين ثم التقائهما. ففي القسم الأول من الرواية، يبرز صوت «الأعمى» وحيداً، وفي القسم الثاني يبرز صوت «الأطرش» وحيداً. لكن الصوتين المتوازيين يشهدان انحناءات تقربهما من بعضهما، فهمومهما مشتركة، وطريق بحثهما عن الخلاص مشتركة، ونقطة التقائهما عند ضريح الولي هي التي تشهد اندماجهما. ففي القسم الثالث من الرواية، يتوحد الصوتان في صوت واحد تلتحم فيه هموم ومعاناة الأعمى والأطرش معاً «انني أمد اليك يدي، أيها الشيخ التقي الميت، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك القمة) التي لا يسبر غورها (...) مد لي يدك يا عبد العاطي، يا عاطي، وانتشلني من هذا الصمت (والظلام) (...) أصيح بين الجدران التي لا ترى في عالمي المعتم (الأصم) (...) أطلب الفكاك من أسر الصمت (والظلام)، اسألك يا ملك الصمت (والظلام)..» (ص ٤٨٥).

ويبدأ الشق الآخر من الرواية مع مطلع القسم الثالث عشر فيها. وهنا تتحول الرواية من الذهنية إلى الواقعية، ويميل شكلها واسلوبها إلى البساطة والوضوح، رغم انه يخلق تناقضاً وازدواجية في بنية العمل الفني.

ولا يدع الكاتب واقعية الرواية تأخذ مسارها، بل يجهضها بالاسقاطات الذهنية، السياسية والايديولوجية. ليجعل من الشخصية الجديدة التي برزت في هذا الواقع (والد حمدان، الفدائي المسيس) نقيضاً فكرياً للأوهام الايديولوجية التي يمثلها الولي «قال ان الأولياء مثل الافاعي التي في قصة الزير، اذا قطعت لها رأساً طلعت مكانه سبعة رؤوس (...) المهم اذا هدمت قبر الولي فعليك ان تقلعه من شروشه، وان لا تسمح لولي آخر بأن يأتي من وراء ظهرك...» (ص ٥٦٩، ٥٧٠). وهذه الشخصية، في الوقت نفسه، نقيض لشخصية اخرى تمثل حالة فكرية تكرس الوهم، فشخصية «مصطفى» هي ذلك النمط من الوهم الايديولوجي.. ولكن بملابس مرقطة.

وإن اعتمدت «برقوق نيسان» على الحدث المحدد زمانياً ومكانياً في رقعة صغيرة، فان شكلها الجديد الذي يلجأ اليه غسان كنفاني، للمرة الاولى، يكمن في تعميق الحدث الآني بالتشعبات من خلال الهوامش الموازية له.